مجلة
كلية الآداب

مجلة علمية محكمة فصلية

العدد (٨٨) خريف ٢٠١٩

مجلة الكلية الآداب: فصلية- علمية- محكمة تعني بنشر الأبحاث العلمية في مجالات الدراسة الإنسانية اللغوية والأدبية والتاريخية والجغرافية والفلسفية والاجتماعية والنفسية والإعلامية وترحب المجلة بالإسهامات العلمية للسادة أعضاء هيئة التدريس والباحثين من العالمين العربي والإسلامي لإثراء المجلة.

قواعد النشر:-

١- تقبل المجلة البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية.
٢- يقر البحث كتابة أن بحثه لم يسبق نشره ولم يرسل لجهة أخري للنشر.
٣- يخطر الباحث بخطاب رسمي بقبول النشر في حالة إجازة البحث للنشر.
٤- تعد الخرائط والرسوم البيانية وغيرها من الإيضاحات من قبل الباحث بطريقة تجعلها قابلة للطبع.
٥- تعبر البحوث المنشورة عن رأي اصحابها فقط.
٦- أصول الأعمال المقدمة للمجلة لا ترد حتى في حالة عدم قبولها للنشر.
٧- يحصل الباحث على نسخة واحدة من عدد المجلة المنشور بها + C.D + عشر مستلات من البحث.
٨- الحجم الأمثل المقبول في حدود (٣٠ صفحة) يسدد الباحث المصري ٦٠٠ جنيها وخمسة عشر جنيهاً عن كل صفحة زائدة، ويسدد الباحث العربي والأجنبي ٣٠٠ دولار وثلاثة دولار عن كل صفحة زائدة.
٩- يسلم البحث مطبوعاً من أصل وصورتين + C.D على أن يكون مجموعاً ببنط ١٤، وأن يكون مقاس الصفحة 12x19سم.
١٠- يكتب عنوان البحث واسم الباحث ودرجته العلمية وجهة عمله في أول صفحة من البحث.
١١- تكتب المراجع والهوامش في نهاية البحث، مع الالتزام بالأسس العلمية للتوثيق.

١٢- يرفق ملخصان للبحث باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يتجاوز حجم الملخص صفحة واحدة.

١٣- تنشر المجلة ملخصات الرسائل العلمية العربية والأجنبية.

١٤- تنشر المجلة بحوث معاوني هيئة التدريس كمتطلب للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه.

١٥- تنشر المجلة بحوث أعضاء هيئة التدريس بدرجة أستاذ وفق القيمة الفعلية للطباعة.

١٦- توجه جميع المكاتبات أو الاستفسارات الخاصة بالنشر إلى رئيس تحرير المجلة على العنوان التالي.

كلية الآداب – جامعة الزقازيق

تليفون : **٠٥٥/٢٣٤٣٨٢١**

http://www.Arts@ Zu.edu.eg

مجلة كلية

مجلة كلية الآداب – جامعة الزقازيق

صدر العدد الأول ٨٦ – ١٩٨٧م

هيئة التحرير

الأستاذ الدكتور

عماد مخيمر

عميد الكلية

رئيس مجلس الإدارة

الأستاذ الدكتور

هناء زكريا على

وكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث

نائب رئيس مجلس الإدارة

الأستاذ الدكتور

فريدة محمد النجدى

رئيس التحرير

الأستاذ الدكتور

محمد عبد الفتاح عوض

سكرتير التحرير

مستشارو التحرير

أ.د . عثمـــان محمد عثمـــان

أ.د . فريـــدة محمد النجـــدي

أ.د . طـــارق زكريـــا علـــي

أ.د . حســـن محمـــد حمـــاد

أ.د. إبـــراهيم المســـلمى

أ.د . أحمـــد صـــلاح الـــدين

أ.د . عبـــد الـــرحمن بشـــير

أ.د . إبـــراهيم عبـــد الـــرحمن

أ.د. عواطـــف صـــالح

افتتاحية العدد

يسرنا أن نقدم العدد ٨٨ خريف ٢٠١٩ من مجلة كلية الآداب– جامعة الزقازيق الذي يأتي متنوعاً وثرياً بفكر السادة الباحثين في مجال العلوم الإنسانية ويحتوي على عشرة أبحاث.

في مجال الدراسات الإسلامية يأتي بحث أ./ طارق مصطفى سليمان تحت عنوان: "تفسير الكشاف نموذجاً لاستجابة المتلقين من قدامى المفسرين في ضوء المكي والمدني" ويتناول لقيمة الكشاف العلمية والتاريخية وآثاره وتنصب الدراسة على تناول الزمخشري للتفسير واعتمدت على المنهجين التحليلي والاستقرائي.

وللغة الفرنسية نصيب ببحثين أولهما للدكتورة مها إبراهيم سلامة وعنوانه: "الازدواجية الثقافية في قصة الممنوعة لملكية المقدم" وتتناول فيه الأوجه المتعددة للهوية المزدوجة من خلال الشخصيات الذين أعطتهم الكاتبة الكلمة جميعاً واستخدمت تقنيات متعددة للكتابة عند تقديم ووصف الشخصيات.

والبحث الثاني للدكتورة/ منال زهران وعنوانه: "السعادة من خلال أول جرعة من البيرة ومتع أخرى صغيرة –لفيليب دليرم–" والذي يدعو للاستفادة من المتع الصغيرة في الحياة من خلال البحث فيها عن مفهوم السعادة وفن الحياة.

وفي مجال علم النفس يأتي بحثان أولهما للباحثة/ أريج احمد اليوبي وعنوانه: "اتجاه الطالبات نحو برامج العمل التطوعي لدى جامعة الملك عبد العزيز بجدة– دراسة وصفية على عينة من طالبات جامعة الملك عبد العزيز–" والذي يكشف لبيان اتجاهات الطالبات نحو برامج العمل التطوعي وطبقت الدراسة على عينة من طالبات في جامعة الملك عبد العزيز وأسست على المنهج الوصفي التحليلي بصورته المسحية، وجاء البحث الثاني للدكتور/ مُحَمَّد حسين مُحَمَّد سعد الدين الحسيني وعنوانه: "الذكاء الوجداني وعلاقته بجودة الحياة لدى عينة من طلبة وطالبات الجامعة" وتهدف الدراسة إلى الكشف عن الفروق بين عينة من طلبة وطالبات كلية الآداب– جامعة المنصورة في الذكاء الوجداني وجودة الحياة وانتهت الدراسة إلى وجود تلك الفروق لصالح الطالبات. وجاء أيضاً بحث الدكتور/ أيمن مُحَمَّد السيد وعنوانه "الفاعلية الذاتية وعلاقتها بالقدرة على مواجهة الضغوط النفسية".

وفي الدراسات الاجتماعية، يأتي بحث الدكتور/ مُحَمَّد محمود خضر وعنوانه: "استراتيجية التفاوض بين المجال السياسي والاجتماعي– دراسة تطبيقية من منظور عينة من الخبراء لحل أزمة سد النهضة الإثيوبي مع مصر". وتسعى الدراسة إلى وضع استراتيجية جديدة تقوم على التفاوض السياسي

والاجتماعي والدبلوماسي على المستويين الشعبي والثقافي بين البلدين واستندت الدراسة على منهج المسح الاجتماعي.

أما الفلسفة فلها نصيب ببحث للدكتور/ مُحَمَّد أمين إبراهيم تحت عنوان: "الدين والمجال العام في فلسفة جون رولز"، وتهتم الدراسة بقضية الصراع على المجال العام وتحريره أو قمعه عند جون رولز وتشير فلسفته إلى وجود مبادئ عادلة مع الجميع سياسياً في المجال.

ويأتي البحث في الدراسات التاريخية وعنوانه: "معالم المنشآت الدينية والتعليمية في مدينة الخليل بفلسطين حتى نهاية القرن العاشر- دراسة تاريخية للباحث/ حسن عبد الله حسن مهنا والذي يسلط الضوء على مدينة الخليل بوجه عام من الوجهة الحضارية واستندت الدراسة على المنهجين التاريخي والاستقرائي.

وفي مجال الجغرافيا، نجد دراسة الدكتور/ مُحَمَّد صبحي إبراهيم وعنوانها: "رحلة العمل اليومية للعاملين بالتعليم العام قبل الجامعي في مركز الدلنجات (محافظة البحيرة) دراسة في جغرافية النقل"، الذي يهدف إلى تحليل أنماط حركة النقل اليومية للعاملين في الخدمات التعليمية بمركز الدلنجات واتبعت الدراسة المنهج الوصفي في جمع البيانات.

وتأتي الدراسة الإعلامية ببحث تحت عنوان: "النقد الاجتماعي السياسي في المسرح الإفريقي- مسرحيات الكاتب النيجيري وول سوسينكا نموذجاً" بالتطبيق على مسرحية "الموت وفارس الملك" للدكتور/ يوسف عبد الرحمن اسماعيل والذي يلقي الضوء على النقد الاجتماعي والسياسي في الدراما المسرحية في افريقيا جنوب الصحراء الكبرى من خلال دراسة أدبية ونقدية لأعمال الكاتب النيجيري وول سوسينكا لاستنباط الوسائل الفنية والدرامية للكاتب.

وبعد هذا العرض الموجز لمحتوى العدد نتقدم بأسمى آيات الشكر للسادة محكميه وكذلك للسادة الباحثين.

نائب رئيس مجلس الإدارة

أ.د/ هناء زكريا

وكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث

المحتويات

النقد الاجتماعي والسياسي في المسرح الإفريقي مسرحيات الكاتب النيجيري وول سوينكا نموذجاً

د/ يوسف عبد الرحمن اسماعيل السيد ١

الذكاء الوجداني وعلاقته بجودة الحياة لدى عينة من طلبة وطالبات الجامعة

د/ مُحَمَّد حسين مُحَمَّد سعد الدين ٤٥

معالم المنشآت الدينية والتعليمية في مدينة الخليل بفلسطين حتى نهاية القرن العشرين

الباحث/ حسن عبد الله حسن..... ١٠١

تفسير الكشاف نموذجاً لاستجابة المتلقين من قدامى المفسرين (في ضوء المكي والمدني)

الباحث/ طارق مصطفى سليمان ١٦٣

رحلة العمل اليومية للعاملين بالتعليم العام قبل الجامعي في مركز الدلنجات (محافظة البحيرة) دراسة في جغرافية النقل

د/ مُحَمَّد صبحي إبراهيم ١٩٩

اتجاهات الطالبات نحو برامج العمل التطوعي لدى جامعة الملك عبد العزيز بجدة

الباحثة/ أريج حامد اليوبي..... ٢٩٣

الفاعلية الذاتية وعلاقتها بالقدرة على مواجهة الضغوط النفسية لدى عينة من طلاب المرحلة الإعدادية

د/ أيمن مُحَمَّد السيد مُحَمَّد شحاتة ٣٣١

استراتيجية التفاوض بين المجال السياسي والاجتماعي، دراسة تطبيقية من منظور عينة من الخبراء لحل أزمة سد النهضة الأثيوبي مع مصر

د/ مُحَمَّد محمود خضر ٤٨٣

الدين والمجال العام في فلسفة جون رولز

أ.م.د/ مُحَمَّد أمين إبراهيم ٤٣٥

Le bonheur à travers “La première gorgée de bière et autres plaisirs minuscules”

Dr. Manal Zahran 1

La dualité culturelle à travers L’Interdite de Malika Mokeddem

Dr. Maha Ibrahim Salama 33

تفسير الكشاف نموذجاً لاستجابة المتلقين من قدامى المفسرين

(في ضوء المكي والمدني)

إعداد الباحث

طارق مصطفى سليمان عراقي

المقدمة

عاش الزمخشري في عصر بلغت فيه النهضة العلمية والأدبية أوجها فتأثر بهذه النهضة، ونهل من معين الثقافة العربية حتى علَّ، فأحب العربية وتشيع للعرب ودافع عنهم ضد الشعوبية وغيرها من الدعوات التي تغض من شأنها، واعتنق فكر المعتزلة فأعلى قدر العقل وأرخى له عنان الفكر، ونظر إلى القرآن نظرة تختلف عن نظرة من سبقه من المفسرين، وبنى تفسيره على معرفة علوم البيان والمعاني والبديع، وطبق ذلك عمليا على آيات القرآن الكريم فأبدع وأجاد، ولم يسبقه أحد- فيما أعلم- إلى هذا العمل، فكان قدوة لمن أتى بعده في الكشف عن أسرار البلاغة القرآنية وبيان أوجه إعجازه، ويمثل الكشاف قمة النضج العلمي عند الزمخشري حيث استوعب ما قاله المفسرون قبله، ونقل عنهم بأمانة علمية، وكان على وعى تام بما ينقله مما أُثر عمن سبقهم بل يظهر حافظًا للحديث متقنًا لفنونه يميز بين أنواع الأحاديث التي يرويها ويسندها إلى أصحابها، وتميز عرضه للمسائل الفقهية عند تفسيره لآيات الأحكام بإلمام واسع بالأحكام الفقهية ومعرفة دقيقة بمسائل الخلاف وترجيح بعض الآراء على بعض، بالإضافة إلى معرفة بالقراءات وتوجيهها واختلاف المعنى باختلافها، ناهيك عن معرفة ودراسة واعية بالشعر العربي والاستشهاد منه، ومعرفة اللغة وأسرارها وشرح مفرداتها إلى حس مرهف لجمال القرآن والإشارة إلى ما في تعبيراته من بلاغة تفوق كل بلاغة والتنبيه على ذلك في مواضعه، ويتضح ذلك من خلال معالجته للموضوعات القرآنية ويكشف عن إحاطته بعلم الكلام والجدل والمنطق والرد على الخصوم بأدلة العقل، فهو في الصميم من طريقة المعتزلة في الجدل والمحاورة والرد على الخصوم. وقد وقع اختياري للكشاف لما له من قيمة علمية وتاريخية وما أثاره من أفكار دفعت كثيرًا من العلماء إلى دراسته وبيان ما فيه وتفنيد ما أثاره من شبهات حتى أصبح مشغلة الدارسين لفترات طويلة إلى يوم الناس هذا، ويحاول الباحث في الصفحات التالية أن يميط اللثام عن تناول الزمخشري للتفسير، وكيف طبق أفكاره الاعتزالية في التفسير، لا سيما وأن الكشاف هو الأثر الوحيد الباقي من تفاسير المعتزلة والله تعالى الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

منهج البحث

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يجمع الباحث بين منهجين؛ المنهج الاستقرائي في تجميع المادة العلمية المتاحة.

والمنهج التحليلي حيث يحلل الباحث المادة العلمية وبيان موقف المشركين من دعوة التوحيد وكيف أقنعهم القرآن بالدخول في دعوة التوحيد.

ومن خلال هذين المنهجين قمت بالآتي:

١- عزو الآيات إلى مواضعها من السور وأرقامها الواردة فيها من السورة.

٢- تخريج الأحاديث النبوية.

٣- وضع فهرس للمصادر والمراجع التي استعان بها الباحث.

٤- الحرص على أن يكون الأسلوب سهلاً ميسورًا حتى يستفيد منه كل قارئ مهما كانت ثقافته.

خطة البحث

اشتمل البحث على مقدمة ومنهج وخطة وخمسة مباحث وخاتمة تحتوى على أهم النتائج.

وتفصيل المباحث على النحو التالي:

١- **المبحث الأول**: الزمخشري والكشاف.

٢- **المبحث الثاني**: المصادر العلمية للكشاف.

٣- **المبحث الثالث**: نماذج تطبيقية من تفسير الزمخشري للمكي والمدني.

٤- **المبحث الرابع**: موقف الزمخشري من القصص القرآني.

٥- **المبحث الخامس**: نماذج من القضايا الاعتزالية في التفسير.

٦- **الخاتمة** وأهم نتائج البحث.

المبحث الأول
الزمخشري والكشاف

الكشاف موسوعة تفسيرية كبيرة، حافل بموضوعات كثيرة في اللغة والنحو والبلاغة والفقه والقراءات وما يتصل بها من تعليل وتمحيص فالزمخشري في تفسيره "كالغواص الماهر الذى يغوص لجج البحار ليستخرج منها الدرر واللآلئ، فجلى في هذا المضمار وحلق وأبدع أيما إبداع"[(١)].

وقد أحيا الزمخشري بالكشاف "ما عفا من تفسير المعتزلة ذلك أنه الأثر التفسيري الكامل والوحيد الذي بقي من هذا التراث الهائل"[(٢)]، وحتى نستطيع أن نحكم على استجابة الزمخشري لابد أن نعرف طبيعة تكوين الشخصية العلمية وعقيدته ومصادر ثقافته حتى نتعرف على العوامل التي توجه استجابته للقرآن.

فالزمخشري صاحب هذا التفسير قد نال المكانة العظمى بين العلماء في عصره وبعده وشغل الناس في القديم والحديث ويكفيه ما قال عنه ابن تغري بردى صاحب النجوم الزاهرة وهو يتكلم عن أحداث سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة " وفيها توفى الشيخ الإمام العلامة فريد عصره ووحيد دهره وإمام وقته أبو القاسم محمود بن عمر بن مُحَمَّد بن عمر الزمخشري الخوارزمي النحوي اللغوي الحنفي المتكلم؛ صاحب الكشاف في التفسير... وكان إمام عصره في عدة علوم"[(٣)]

فهذه الصفات التي أوردها ابن تغري بردى تنم عن مكانته العالية وتقدير العلماء له ولكتابه الكشاف حيث نعته بصاحب الكشاف، وذلك لأن الكشاف في وقته وبعد ذلك لم يكن سهل المنال قريب المأخذ يستطيع كل أحد أن يفهم أو يستوعب ما فيه، بل كان يحتاج إلى جهد جهيد، وإلى عالم نحرير ليقرب ما قاله الزمخشري لطلاب العلم ومن يتصدون للتفسير فهو يحتاج إلى عالم في قامة الزمخشري ليقربه إلى طلابه وهذا ما فعله الامام يحي بن حمزة العلوي عندما ألف لطلابه

---

(١) الزمخشري (محمود بن عمر)؛ ربيع الأبرار وفصوص الأخبار جـ١: ٣٧ تحقيق د. عبد المجيد دياب مراجعة د. رمضان عبد التواب طبع الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٢م.

(٢) الجويني (د. مصطفى الصاوي)؛ منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه صـ٧٥ طبع دار المعارف القاهرة الطبعة الثالثة ١٩٨٤ م.

(٣) ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف٨١٣- ٨٧٤هـ)؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ٥: ٢٧٤ طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠٠٨ م.

كتابا في علم البيان، ليقرر لهم أصول هذا العلم ليُتْقِنُوه أولا ثم يخوضوا في لجج الكشاف ليفهموا من صاحبه ما أراد بيانه من خلال تفسيره لآيات الذكر الحكيم فيقول "... ثم إن الباعث على تأليف هذا الكتاب هو أن جماعة من الإخوان شرعوا في قراءة كتاب الكشاف تفسير الشيخ العالم المحقق محمود بن عمر الزمخشري أستاذ المفسرين فإنه أسسه على قواعد هذا العلم (علم البيان) فاتضح عند ذلك وجه الإعجاز من التنزيل، وعرف من أجله وجه التفرقة بين المستقيم والمعوج من التأويل، وتحققوا أنه لا سبيل إلى الاطلاع على حقائق إعجاز القرآن إلا بإدراكه والوقوف على أسراره وأغواره، ومن أجل هذا الوجه كان متميزا عن سائر التفاسير، لأني لا أعلم تفسيرا مؤسسا على علمي المعاني والبيان سواه"(٤).

وترجع استجابة الزمخشري في هذا العمل العلمي الفريد الذي قدمه في الكشاف إلى عدة عوامل أهمها اعتناقه مذهب المعتزلة وكان يفخر بذلك ويسميهم أهل العدل والتوحيد ويسميهم الفرقة الناجية وهذه الفرقة " قد انتهجت وسائل عقدية معينة اعتمدت فيها على العقل والجدل، وتأثرت إلى حد كبير بالفلسفة اليونانية "(٥)، وكان ظهور هذه الفرقة أثرًا لما ترجمه المأمون من كتب الفلسفة اليونانية والتي أقبل عليها زعماء المعتزلة يقرؤونها فكان من أثر هذه القراءة "تطور الفكر العربي فظهرت ألوان من الثقافة يمازج بعضها بعضا، وكانت ينابيع الثقافة عربية إسلامية ودخيلة، وصار بعض المسلمين الذين حملوا ألوية التفكير على صلة وثيقة بهذه الثقافات، واستعانوا بها في مجادلتهم لليهود والنصارى وغيرهم، وكان المعتزلة أقدر المسلمين على هذه المجادلات؛ لأنهم في طليعة الدراسين للفلسفة وللعلوم شغفا بالمعرفة وإحاطة بما يعلمه خصومهم، وليستطيعوا محاجتهم ومناظرتهم، وليؤيدوا أصول الإسلام بأدلة ليست من القرآن أو الحديث يضطر أعداء الإسلام إلى التسليم بها "(٦).

(٤) العلوى (يحي بن حمزة)؛ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز جـ١: ٥ طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠٠٩ م.

(٥) الشكعة (د. مصطفى)؛ إسلام بلا مذاهب صـ ٣٩٩ طبع الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة الطبعة السابعة ١٤٢٧هـ، ٢٠١٦ م.

(٦) الحوفى (د. أحمد)؛ الزمخشري، صـ ١١٤، ١١٥ طبع دار الفكر العربي طبعة أولى ١٩٦٦ هـ.

وبهذا تكون المعتزلة "حركة فكرية محضة لم تكوّن جيشا ولم تُشْهر سيفًا"(٧).

وقد شُغِلَ رجالها ببحث بعض القضايا الدينية والسياسية وبحثوها بحثا فكريا عقليا، ولم يثيروا فتنا عسكرية وبهذا اختلفت هذه الفرقة عن الفرق الأخرى كالشيعة والخوارج وغيرهما.

وقد "اعتمد المعتزلة على العقل في تقرير مبادئهم، فعُنوا بالعقل وأحلُّوه مكانا ساميا، ثم اعتمدوا على الفلسفة التي كانت سلاح أعداء الإسلام يهاجمونهم به، فاتخذ المعتزلة هذا السلاح سلاحا لهم، وتصدوا للدفاع عن الإسلام به ضد كل من يناوئ الإسلام"(٨).

وصفوة القول: أن المعتزلة تمثل في الفكر الإسلامي الطبقة المثقفة الواعية المدافعة عن الإسلام، فقد كان منها علماء الكلام المتبحرون، وأدباء أبيناء، وأئمة في النحو وأعلام في التفسير ويهمنا هنا خاصة مفسرو المعتزلة الذين أسهموا في خدمة القرآن.

كانت هذه هي طبيعة الفرقة التي ينتمى الزمخشري إليها من إعلاء جانب العقل والشغف بالتفكير الفلسفي والمنطق ومجادلة الخصوم، وهذا ما صادف فطرة فُطِر عليها فقد كان بطبعه كلفا بحرية الرأي ميالا إلى عمق الفكر، وتقليب وجهات النظر وإلى المناقشة والجدل.

وهذه الفطرة التي فطر عليها دل عليها كلامه عندما نصح أحد طلابه فقال: "لا تقنع بالرواية عند فلان وفلان، وامش في دينك تحت راية السلطان (العقل) فما الأسد المتحجب في عرينه أعز من الرجل المحتج على قرينه، وما العنز الجرباء تحت الشمأل البليل أذل من المقلد بين يدى صاحب الدليل، وجامع الروايات المحوية، ولا حجة عنده مقوية، أوقر ظهره بالحطب واعتقل زَنَدَه بلا سبب، لم أرَ فرسي رهان مثل الحق والبرهان، لله درهما متخاصمين ولا عدمتهما متناصرين من شد يديه بعزهما غلب، ومن زل عنهما فهو أذل من الذلة، وأقل من القلة"(٩).

وهذا الكلام يدل على كراهيته للتقليد وحبه للتفكير ولا يهم الكم بكثرة الرواية فهو كمن أثقل كاهله بما ينوء به من الأحمال ولم يستفد من ذلك ولكن المهم هو الكيف وهو الفكر الرصين ومعرفة الحق الواضح بالبرهان والدليل فهذا هو العلم وهذا هو العز وبغيره يكون الذل فليس العلم

(٧) شلبي (د. أحمد)؛ موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية جـ٢: ٢٨١ طبع مكتبة النهضة المصرية الطبعة التاسعة ١٩٩٦ م.

(٨) نفسه جـ ٢ ٢٩٢.

(٩) الزمخشري صـ ٦٨.

بكثرة التحصيل من غير تدقيق ولا تمحيص، ولكن العلم هو الفكر الصائب وإعمال العقل فيما يصل إليه من معلومات

أما عن ثقافة الزمخشري فيظهر من مؤلفاته أنه لم يكتف بأكثر ثقافة عصره فحسب بل أسهم في حقولها بشجرات شهيات الثمرات منها على سبيل المثال " أساس البلاغة وهو معجم لغوى لم يُسْبَقْ إليه، وكتاب جواهر اللغة، وربيع الأبرار وفصوص الأخبار (في أدب السمر) وشرح المفصل في النحو والكشاف وهو أشهر كتبه في التفسير ومقامات الزمخشري ومقدمة الأدب " [١٠].

فتلك بعض مؤلفاته ويوجد غيرها كثير يدل على ثقافته الموسوعية وسعة اطلاعه في العربية وكثرة عطائه.

أما عن تفكيره فكان حر الفكر؛ وصاحب كثير من الآراء المبتكرة قديرا على استنباط المعاني، بارعا في الجدل حتى لقد طبق تفسيره وتأويله للقرآن على مذهب المعتزلة تطبيقا لم يسبق إليه على هذه الصورة الكاملة ولم يجئ بعده من صنع صَنِيعَهُ، ومن خلال هذا العقل الراجح والفكر المستنير " استطاع الزمخشري أن يقدم صورة رائعة لتفسير القرآن الكريم يعينه على ذلك بصيرة نافذة تتغلغل في مسالك التنزيل وتكشف عن خفاياه ودقائقه، كما يعينه ذوق أدبى مرهف يقيس الجمال البلاغي قياسا دقيقا وما يطوى فيه من كمال وجلال وهو من هذه الناحية ليس له قرين سابق ولا لاحق في تاريخ التفسير، بل لقد بَزَّ الأوائل والأواخر، حتى لنرى أهل السُّنَّة يشيدون به وبتفسيره على الرغم من اعتزاله ومخالفته لهم في عقيدته الاعتزالية"[١١].

(١٠) السامرائي (د. فاضل صالح)؛ الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري من صـ ٩٣ إلى صـ ١١٠ طبع دار ابن كثير بيروت لبنان ١٤٣٧هـ ١٠١٦م.

(١١) ضيف(د. شوقي)؛ البلاغة العربية تطور وتاريخ صـ ٢٢٠ طبع دار المعارف القاهرة، الطبعة الرابعة عشر د. ت.

المبحث الثاني

المصادر العلمية للكشاف

جمع الزمخشري المادة العلمية للكشاف من عدة مصادر منها ما كتبه المفسرون السابقون " كتفسير مجاهد ت: ١٠٤هـ، وعمرو بن عبيد المعتزلى ت١٤٤هـ، والزجاج ت٢٣٥هـ، والرمانى ت٣٨٤هـ، وتفاسير العلويين حيث يكثر النقل عن على بن أبى طالب، وجعفر الصادق وتفاسير الفرق التي تعادى المعتزلة كالخوارج والرافضة والمتصوفة ومصادر الحديث حيث رجع إلى صحيح مسلم وغيره وكان يكرر عبارة " وفى الحديث...." ورجع إلى قراءات ومصاحف الأمصار فنقل عنها وهذا يفهم من قوله:" وفى بعض المصاحف "، ومن مصادره في النحو " الكتاب" لسيبويه حيث يكثر الاستشهاد به ويقدمه على غيره بل يقدسه، وإصلاح المنطق لابن السِّكِّيت. ت ١٤٤هـ، والكامل للمُبَرِّد. ت ٢٨٥هـ والمتمم في الخط والهجاء لابن درستويه ت ٣٤٧ هـ وغيرها من الكتب ومن مصادره من كتب الأدب حماسة أبى تمام، والحيوان للجاحظ وغيرهما، واعتمد على مصادر أخرى من كتب الوعظ والتصوف كالذى نقله عن شهر بن حوشب وطاووس ومالك بن دينار، وبعض القصص الأسطورية " [١٢].

ولكن إذا كانت هذه هي المصادر التي اعتمد عليها الزمخشري في جمع المادة العلمية للكشاف فما الجديد الذى قدمه، فهذه المصادر متاحة ومعروفة ومشهورة يرجع إليها من أرادها والناظر في الكشاف يجد الجديد الذى قدمه الزمخشري في تفسيره وجعله مختلفا عن غيره من التفاسير هو أنه جعل علمي المعاني والبديع أهم عدة لمن يريد أن يفسر التنزيل إذ بدونهما لا تستقيم له الإشارات ولا لطائف ما في الذكر الحكيم من الجمال البلاغي الذى عنت له وجوه العرب وخروا له ساجدين.

وهذه المعرفة البلاغية لدى المفسر لا تكشف فقط عن وجوه الإعجاز البلاغي للقرآن بل تكشف أيضا عن خفايا معانيه وخبيئاتها وذخائرها المكنونة، فالتفسير ليس معرفة معانى الكلمات فحسب بل ينبغي على المفسر أن يفكر فيما وراء اللفظ، ولِمَ اسْتُعْمِلَ اللفظ ولِمْ يُسْتَعْمَل غيره، وعلة استخدام التعبيرات البلاغية. ليكشف عن أسرار القرآن وهذا ما ينبغي على المفسر أن يوفر جهده عليه ليكشف عما في القرآن من معانٍ وأسرار.

(١٢) منهج الزمخشري في تفسير القرآن صـ ٨٠ إلى صـ ٩٢ بتصرف.

والمطالع لمقدمة التفسير يكتشف من أول وهلة أنه أمام رجل لا ينظر نظرة سطحية للقرآن بحيث يشرح مفرداته ويبين معانى الكلمات عندما يقول: " إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها علم التفسير الذى لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم "(١٣).

فهو يعلن أن علم التفسير فيه من الفوائد ما يغطي العقول ويدهش الأذكياء من كثرة ما فيه من النكت التي تخفى على الأذكياء والعقلاء وليس كل ذي علم يستطيع أن يصل إليها، وهو الذى سيبحث عن هذه النكت، ويغوص وراء هذه الدرر، ولن يكون ذلك إلا بإمعان الفكر وإنعام النظر.

ويقول عمن يجب أن يتصدى للتفسير في نظره " ولا يتصدى منهم (الفقهاء والمتكلمون والقصاص والوعاظ والنحاة واللغويون) لسلوك تلك الطرائق ولا يغوص على شيء من هذه الحقائق إلا رجل برع في علمين مختصين بالقرآن هما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة وبعثته على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ﷺ، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ؛ جامعًا بين أمرين تحقيق وحفظ "(١٤).

فأهم ما يميز من يتصدى للتفسير عند الزمخشري معرفة علمي المعاني والبيان وليست هذه المعرفة معرفة سطحية بل معرفة مستفيضة بحيث يكون مُلِمًّا بكل دقائق هذا العلم بهمة عالية وأن يكون ما يتغياه هو الوصول إلى معرفة اللطائف في القرآن الذى هو حجة الله على خلقه وأن يكون محققًا حافظًا مدققًا.

ثم يستكمل الزمخشري هذه الشروط التي وضعها لمن يتصدى للتفسير فيقول فيمن يتصدى للتفسير " كثير المطالعات طويل المراجعات؛ قد رجع زمانًا ورُجع إليه، ورَدَّ ورُدَّ عليه فارسًا في علم الإعراب، مقدمًا في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها، يقظان النفس، داركًا للمحة وإن لطف شانها، منتبها على الرمزة وإن خفى مكانها، لا كزًّا

(١٣) الكشاف جـ١ صـ ك مقدمة المؤلف.

(١٤) الكشاف جـ١ صـ مقدمة المؤلف.

جاسيا، ولا غليظا جافيا متصرفا ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضًا غير ريض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يُرَتِّب الكلام ويُؤَلِّف، وكيف يَنْظُمُ ويَرْصُف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مداحضه ومزالقه "[١٥].

فهذه هي جملة الشروط التي وضعها للمفسر من حيث مطالعته لكتب السابقين عليه ولا يقبل ما فيها على عواهنه بل يراجعه كثيرا على عقله حتى يخلص إلى الحقائق وينفى عنه ما لا يتفق مع الفكر السليم، والمفسر عالم قد أطال الدرس على العلماء حتى صار ممن يرجع إليه الطلاب، وله مساجلات مع غيره سواء في رده عليهم بعض آرائهم أو مناقشتهم فيما ردوه من كلامه، وأن يكون عالما بالنحو والإعراب يشار إليه بالبنان إذا ذكروا العلماء ويجمع إلى هذه العلوم اليقظة والذكاء وسرعة البديهة حتى ليفهم الإشارة والرمز والتلميح، ويتمتع بحسن الخلق والبراعة في علم المعاني ومعرفة مواقع الكلام، وما يُستملح منه وما يُستقبح، وهذه المعرفة بالمعاني ليست سطحية بل هي معرفة رجل قد تمرس بهذين العلمين وقتلهما بحثا وأنفق أياما طوالا في التنقير عن حقائقها وأجهد عقله في معرفة الخفايا والدقائق.

ومن هذه الشروط التي وضعها لنفسه في مقدمته وسار عليها عند تعرضه للتفسير توضح أنه يعلى جانب العقل ويرفع شأن الفكر، ويطلق العنان لعقله في البحث عن كل ما يشغله في القرآن الكريم، ومن خلال سيره على هذا المنهج وعند مطالعتك للتفسير تبلغ بك الحيرة مداها في تحديد ملامح شخصية ذلك المفسر العبقري فأنت أمام " معتزلي مفكر، ومفسر أثرى.. وعالم لغوى ونحوى، وعالم بالقراءات، وفقيه وأديب، ومرب روحي يستهدف صلاح المجتمع"[١٦]

(١٥) الكشاف نفس الصفحة.

(١٦) منهج الزمخشري في تفسير القرآن صـ ٩٣.

المبحث الثالث

نماذج تطبيقية من تفسيره للمكي والمدني

ولنبدأ في عرض نماذج من تفسيره للقرآن المكي والمدني لنرى كيف ظهرت معالم شخصيته من خلال تفسيره وتطبيقه لمبادئه التي نادى بها في مقدمته وكيف كانت استجابته للنص القرآني.

أولا: مثال من تفسيره للقرآن المدني يظهر فيها حسن تعليله للآيات حيث أجرى التفسير على طريقة حوارية تفصيلية فيها السؤال والجواب، وأراد أن يكون منهجا ينهجه من يريد التفسير في تفسيره لقوله تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (١٧)

قال الزمخشري: " من عادته عز وجل في كتابه أن يذكر الترغيب مع الترهيب ويشفع البشارة بالإنذار إرادة التنشيط لاكتساب ما يزلف والتثبيط عن اقتراف ما يتلف، فلما ذكر الكفار وأعمالهم أوعدهم بالعقاب، قفاه ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة من فعل الطاعات وترك المعاصي وحموها من الإحباط بالكفر والكبائر بالثواب، فإن قلت: من المأمور بقوله (وبشر) ؟ قلت: يجوز أن يكون الرسول ﷺ وأن يكون كل أحد..... وهذا الوجه أحسن وأجزل لأنه يؤذن بعظمه وفخامة شأنه محقوق بأن يبشر به كل من قدر على البشارة به، فإن قلت علامَ عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهى يعطف يصح عطفه عليه ؟ قلت ليس الذى اعتمد العطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهى يعطف عليه، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف عقاب الكافرين "(١٨).

فنجده قد علل لذكر الجنة بعد ذكر النار، والثواب بعد العقاب بأن الغرض من ذلك هو التنشيط لاكتساب الحسنات والتثبيط عن اقتراف السيئات ثم يوضح أن وبشر خطاب لكل أحد من المسلمين أن يبشر عامتهم بالثواب العظيم وعلة ذلك عظم الأمر وفخامة شأنه ثم يبرز علة العطف.

---

(١٧) البقرة: ٢٥.

(١٨) الكشاف جـ١: صـ ٧٨.

فهو لا يمر على الآيات مر الكرام، بل يقف وقفة متأنية مع كل آية ليوضح السبب في مجيئها على هذه الصورة ويستمر في شرحه ويقول عن سبب ذكر (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) فيقول: " والصالحات كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والكتاب والسنة "[١٩]، وهذه العبارة تدل على اعتبار العقل هو أساس التحسين عنده بدليل أنه قدمه على الكتاب والسنة، فالعقل عند الزمخشري يسبق السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل، والباحث يميل إلى رأى أهل السنة لأن الأدلة تكون من القرآن والسنة والإجماع والقياس وتأتى أدلة العقل بعدها.

ثم يقول في " الصَّالِحَاتِ " اللام للجنس، فإن قلت: أي فرق بين لام الجنس داخلة على المفرد، وبينها داخلة على المجموع ؟ قلت: إذا دخلت على المفرد كان صالحًا لأن يراد به الجنس إلى أن يُحاط به، وأن يُراد به بعضُه لا إلى الواحد منه، لأن وزانه في تناول الجمعية في الجنس وزان المفرد في تناول الجنسية والجمعية في جُمَل الجنس لا في وحدانه. فإن قلت: فما المراد بهذا المجموع مع اللام ؟ قلت: الجملة من الأعمال الصحيحة المستقيمة في الدين على حسب حال المؤمن في موجب التكليف"[٢٠].

فهو يذكر الفرق بين " ال " الجنسية التي تدخل على المفرد والجمع ثم يحلل ويفترض فإن قلت.... قَلْتُ حتى يصل إلى نهاية الافتراضات العقلية التي يمكن أن تخطر على بال من يناقشه أو يستوضحه عن هذه الآيات ثم يصل في النهاية إلى العلة في استخدام الجمع ودخول " ال " عليه هو جملة من الأعمال الصحيحة المستقيمة في الدين على حال المؤمن في موجب التكليف فهى أعمال تستقيم في الدين على سائر الضوابط التي وضعها الشرع لقبول الأعمال من المكلف.

ثم يتعرض لقضية عقلية أخرى فيقول: " فإن قلت الجنة مخلوقة أم لا ؟ قلت: قد اخْتُلِف في ذلك والذى يقول إنها مخلوقة يستدل بسكن آدم وحواء بالجنة وبمجيئها في القرآن على نهج الأسماء الغالبة اللاحقة بالأعلام "[٢١].

ثم سكت ولم يعرض حجة الفريق الآخر الذى يقول إنها غير مخلوقة ودليله أن آدم سكنها مع حواء، وأنها تأتى في القرآن على نهج الأسماء التي تلحق بالأعلام والله أعلم.

---

(١٩) الكشاف جـ ١: صـ ٧٩.

(٢٠) الكشاف جـ ١: صـ ٧٩.

(٢١) الكشاف جـ ١: صـ ٨٠.

ثم يعود لتعليل ورود الكلمة في القرآن على صيغة الجمع والتنكير فيقول " فإن قلت: ما معنى جمع الجنة وتنكيرها ؟ قلت: الجنة اسم لدار الثواب كلها، وهى مشتملة على جنان كثيرة مرتبة على مراتب حسب استحقاقات العاملين لكل طبقة منهم جنات من تلك الجنان"(٢٢).

فهو يرى أن أهل الجنة ليسوا جميعًا في منزلة واحدة بل هم طبقات ودرجات، لكل طائفة منهم جنة من تلك الجنان ودرجة من هذه الدرجات وهذا علة ورودها مجموعة ومنكرة.

وقوله " ولما قيل لهم جنات لم يخل خلد السامع أن يقع فيه أن أثمار تلك الجنات أشباه ثمار جنات الدنيا أم أجناس آخر لا تشابه هذه الأجناس ؟ فقيل إنما ثماره أشباه ثمار جنات الدنيا أي أجناسها، وإن تفاوتت إلى غاية لا يعلمها إلا الله..... فإن قلت: لأى غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة، وما بال ثمر الجنة لم يكن أجناسًا أخر؟ قلت: لأن الإنسان بالمألوف آنس، وإلى المعهود أميل، وإذا رأى مالم يألفه نفر عنه طبعه وعافته نفسه، وأنه إذا أُوتى بشيء من جنس ما سلف له به عهد وتقدم له معه إلف، ورأى فيه مزية ظاهرة، وفضيلة بينة، وتفاوتًا بينه وبين ما عهد بليغًا، أفرط ابتهاجه واغتباطه، وطال استعجابه واستغرابه، وتبين كنه النعمة فيه، وتحقيق مقدار الغبطة به، ولو كان جنسًا لم يعهده، وإن كان فائقًا، حسب أن ذلك الجنس لا يكون إلا كذلك، فلا يتبين موقع النعمة حق اليقين،.... وذلك أبين للفضل وأظهر للزينة، وأجلب للسرور وأزيد في التعجب.... وترديدهم هذا القول ونطقهم به عند كل ثمرة يرزقونها دليل على تناهى الأمر وتمادى الحال في ظهور المزية وتمام الفضيلة وعلى أن ذلك التفاوت العظيم هو الذى يستملي تعجبهم في كل أوان "(٢٣).

وهكذا نرى أنه لا يمر على الآيات بقراءة عابرة بل يقف عند كل لفظة ليعمل عقله وينعم فيها النظر مرة بعد مرة فيحسن التعليل لما فهمه، وينير الطريق لمن يأتي بعده ولسان حاله يقول: هكذا يكون التفسير، فقفوا عند كل آية وافهموها واستنبطوا العلل التي تستتر خلف تعبيرات القرآن.

(٢٢) الكشاف جـ ١: صـ ٨٠.

(٢٣) الكشاف جـ١: ٨١.

ولنأخذ مثالاً آخر من تعليله وقوة حجته من القرآن المكي في تفسيره لقوله تعالى في سورة الأنعام المكية (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) [٢٤] قال: " لا تسبوا الآلهة الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله وذلك أنهم قالوا: لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون إلهك، وقيل كان المسلمون يسبون آلهتهم فنهوا لئلا يكون سبهم سببًا لسب الله تعالى، فإن قلت: سب الآلهة حق وطاعة فكيف صح النهي عنه، وإنما يصح النهى عن المعاصي ؟ قلت: ورُبَ طاعة علم أنها- ستكون مفسدة فتخرج عن أن تكون طاعة، فيجب النهى عنها لأنها معصية لا لأنها طاعة كالنهي عن المنكر وهو من أجلِّ الطاعات فإذا علم أنه يؤدى إلى زيادة الشر انقلب معصية ووجب النهى عن ذلك النهي، كما يجب النهي عن المنكر"[٢٥].

فهو يعلل سبب الامتناع عن سب الآلهة مع أنه حق بأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ووضح ذلك بترك النهى عن المنكر إن كان النهى عنه يسبب فسادًا أكبر.

وقضية أخرى من قضايا القرآن المكى وهى قضية التوحيد والتي تفرع عنها البحث في إمكان رؤية الله تعالى في الآخرة وهى القضية التي حصلت فيها مساجلات كثيرة بين أهل السنة والمعتزلة لنرى كيف عالجها الزمخشرى وحاول أن يثبت ما يعتنقه من أفكار، ويبرهن على صحة ما ذهب إليه فقد " اتفق المعتزلة على نفى رؤية الله تعالى بالإبصار في دار القرار ونفى التشبيه عنه من كل وجه؛ جهةً، ومكانًا، وصورة، وجسمًا، وتحيزًا، وانتقالاً، وزوالاً، وتغيرًا، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها، وسموا هذا النمط توحيدًا"[٢٦].

فقال في تفسير قوله تعالى (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)[٢٧]، البصر هو الجوهر اللطيف الذى ركبه الله تعالى في حاسة النظر، به تدرك المبصرات لمعنى أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه لأنه متعالٍ أن يكون مبصرًا في ذاته، لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان من جهة أصلاً أو تابعًا كالأجسام والهيئات " وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ " وهو للطف إدراكه

(٢٤) الأنعام: ١٠٨.

(٢٥) الكشاف جـ٢: ٤٤.

(٢٦) الشهرستاني (أبو الفتح مُحَمَّد بن عبدالكريم ت. ٥٤٨ هـ)؛ الملل والنحل جـ ١: ٦٦ طبع المكتبة التوفيقية بالقاهرة ٢٠٠٣ م تحقيق مُحَمَّد فريد.

(٢٧) الأنعام: ١٠٣.

المدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك، (وَهُوَ اللَّطِيفُ) يلطف عن أن تدركه الأبصار (الْخَبِيرُ) بكل لطيف فهو يدرك الأبصار ولا تلطف عن إدراكه وهذا من باب اللطف "[٢٨].

فقوله " لأنه متعال عن أن يكون مُبْصَرًا " استحالة الرؤية مذهب المعتزلة لظاهر هذه الآية، وجوازها مذهب أهل السنة لقوله تعالى " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ "[٢٩].

وعند حديثه عن قوله تعالى " وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ "[٣٠].

قال: " ثاني مفعولي أرنى محذوف أي أرنى نفسك أنظر إليك "[٣١]

قال ابن المنير: " ما أشد اضطراب كلام الزمخشري في هذه الآية؛ لأن غرضه أن يدحض الحق بالضلالة، ويشين بكفه وجه الغزالة، هيهات قد تبين الصبح لذى عينين، فالحق أبلج لا يمازجه ريب إلا عند ذي رين، أما حظ المعقول من إجازة رؤية الله تعالى فوظيفة علم الكلام، وأخصر وجه من إجادة ذلك: أن الوجود مصحح الرؤية بدليل أن جواز الرؤية حكم يستدعى مصححا، وقد شمل الجواز الجوهري والعرض، ولا جامع بينهما يمكن جعله مصححًا سوى الوجود وإذا كان الوجود هو المصحح فقد صحت رؤيته تعالى لوجوده وأما استبعاد أن يرى ما ليس من جهة فأمر وهمي مثله عَرَضَ للمُعَطِّلَة فعميت بصائرهم حتى أنكروا موجودًا لا من جهة ومن اتبع الأوهام اغتسق مهامه الضلالة وهام، ولو كانت الرؤية تتوقف على جهة المرئي لكانت المعرفة تتوقف على جهة المعروف، ولا خلاف على أنه سبحانه يعرف لا من جهة، فكذلك يرى لا من جهة، فالحق أن موسى عليه السلام طلب الرؤية لنفسه لعلمه بجواز ذلك على الله تعالى، والقدرية هم الذين يجبرهم الطمع ويجرؤهم حتى يروموا أن يجعلوا موسى عليه السلام كان على معتقدهم، وما هم حينئذٍ إلا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا، وأما قوله عليه السلام

---

(٢٨) الكشاف جـ ٢: ٤٢

(٢٩) الإسكندري (أحمد بن المنير)؛ الانتصاف من الكشاف حاشية الكشاف جـ٢: ٤٣١.

(٣٠) الأعراف: ١٤٣.

(٣١) الكشاف جـ ٢: ١١٩.

(أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا) تبريًا من أفاعيلهم وتسفيهًا لهم وتضليلاً لرأيهم، فلا راحة للقدرية في الاستشهاد على إنكار موسى عليه السلام بجواز الرؤية، فإن الذى كان الإهلاك بسببه هو عبادة العجل في قول أكثر المفسرين. وإن كان لسبب طلبهم للرؤية، فليس لأنها غير جائزة على الله تعالى، ولكن لأن الله أخبر أنها لا تقع في دار الدنيا والخبر صدق وذلك بعد سؤال موسى الرؤية فلما سألوا وقد سمعوا الخبر بعدم وقوعها، كان طلبهم خلاف المعلوم تكذيبًا للخبر، فمن ثَمَ سَفَّهَهُم موسى عليه السلام، وتبرأ من طلب ما أخبر الله أنه لا يقع ثم، ولو كان سؤالهم الرؤية قبل إخبار الله تعالى بعدم وقوعها، فإنما سفههم موسى عليه السلام لاقتراحهم على الله هذه الآية الخاصة، وتوقيفهم الإيمان عليها حيث قالوا (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) ألا ترى أن قولهم (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا) إنما سألوا فيه جائزا، ومع ذلك قُرِّعوا به لاقتراحهم على الله ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه، فهذه المباحث الثلاثة توضح لك سوء نظر الزمخشري بعين الهوى وعمايته عن سبيل الهدى والله الموفق "(٣٢).

ثم يستطرد الزمخشري في حديثه عن نفى الرؤية في الآخرة وهو مذهب المعتزلة فيقول: " فإن قلت الرؤية عين النظر، فكيف قيل: (أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ؟) قلت معنى أرنى نفسك، اجعلني متمكنًا من رؤيتك بأن تتجلى لي فأنظر إليك وأراك فإن قلت فكيف قال (لَنْ تَرَانِي) ولم يقل لن تنظر إليَّ، لقوله (أَنْظُرْ إِلَيْكَ) قلت: لما قال (أَرِنِي) بمعنى اجعلني متمكنًا من الرؤية التي هي الإدراك علم أن الطلب هي الرؤية لا النظر الذى لا إدراك معه، فقيل لن تراني؛ ولم يقل لن تنظر إليَّ. فإن قلت كيف طلب موسى عليه السلام ذلك وهو من أعلم الناس بالله، وما يجوز عليه وما لا يجوز، وبتعاليه عن الرؤية التي هي إدراك ببعض الحواس، وذلك إنما يصح فيما كان من جهة، وما ليس بجسم ولا عرض فمحال أن يكون من جهة، ومنع المجبرة إحالته في العقول غير لازم لأنه ليس بأول مكابرتهم وارتباكهم، وكيف يكون طالبه وقد قال: حين أخذت الرجفة الذين قالوا أرنا الله جهرة.. (أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا) إلى قوله (تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ) فتبرأ من فعلهم ودعاهم سفهاء وضلالاً. قلت: ما كان طلب الرؤية إلا ليبكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالاً، وتبرأ من فعلهم، وليلقمهم الحجر وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ ونبههم على الحق

(٣٢) الانتصاف حاشية الكشاف جـ ٢: ١٢٠.

فلجوا وتمادوا في لجاجهم وقالوا: لابد ولا نؤمن حتى نرى الله جهرة، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك، وهو قول الله (لن ترانى) ليتيقنوا وينزاح عنهم ما داخلهم من الشبهة فلذلك قال: (رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ). فإن قلت: لأن الله تعالى إنما كلم موسى عليه السلام وهم يسمعون، فلما سمعوا كلام رب العزة أرادوا أن يرى موسى ذاته فيبصروه معه، كما أسمعه كلامه فسمعوه معه إرادة مبنية على قياس فاسد، فلذلك قال موسى عليه السلام أرنى أنظر إليك، ولأنه إذا زجر عما طلب وأنكر عليه في نبوته واختصاصه وزلفته عند الله، وقيل له لن يكون ذلك كان غيره أولى بالإنكار، ولأن الرسول إمام أمته فكان ما يخاطَب به أو ما يخاطِب به أو ما يخاطِب راجعًا إليهم وقوله (أَنْظُرْ إِلَيْكَ) وما فيه من معنى المقابلة التي هي محض التشبيه والتجسيم دليل على أنه ترجمة عن مقترحهم وحكاية لقولهم وجَلَّ صاحب الجبل أن يجعل الله منظورًا إليه، مقابلاً بحاسة النظر فكيف بمن هو أعرف في معرفة الله تعالى من واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، والنظام، وأبى الهذيل والشيخين وجميع المتكلمين ؟ فإن قلت: ما معنى (لن) ؟ قلت: تأكيد النفى الذى تعطيه لا، وذلك لأن (لا) تنفى المستقبل فقول (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) نفي للرؤية فيما يستقبل ولن ترانى تأكيد وبيان"[٣٣] فالزمخشرى يعلن رأيه صراحة بأن الرؤية غير جائزة لا في الدنيا ولا في الآخرة، ويغمز أهل السنة عندما يقول ومنع المجبرة إحالته " حيث ذهبوا إلى جواز رؤيته تعالى ومنعوا اشتراط كون المرئي في جهة قال تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) والجائز قد ينتفى في بعض الأوقات ويقع في بعض"[٣٤].ويحاول الزمخشرى أن ينزه موسى عليه السلام بمعرفته باستحالة الرؤية ومكانته ومنزلته عند الله تعالى " وهو غنى عنه وأما إقناعه في تفضيله برجاحته عليه السلام في العلم بالله وبصفاته على واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظام وأبى الهذيل والشيخين فهو نقص من منصبه العلى، وأقل العوام المقلدين لأهل السنة راجح عند الله على أصحاب البدع والأهواء، وإن ملأوا الأرض نفاقًا، وشحنوا مصنفاتهم عنادًا لأهل السنة وشقاقًا، فكيف بكليم الله تعالى عليه أفضل الصلاة والسلام"[٣٥].

(٣٣) الكشاف جـ ٢: ١٢٠، ١٢١.

(٣٤) الانتصاف؛ حاشية الكشاف جـ٢: ١٢٠.

(٣٥) الانتصاف جـ ٢: ١٢١.

وهو أيضًا ينتصر لمذهبه لأن المعتزلة يقدمون العقل، وأهل السنة يقدمون النقل، ومستندهم الحديث " سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر "[٣٦]، وقال في هجائه لهم " ثم تعجب من المُتَّسِمِينَ بالإسلام المُتَسَمِّينَ بأهل السنة والجماعة كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهبًا ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة فإنه من منصوبات أشياخهم والقول ما قال بعض العدلية فيهم:

لجماعة سموا هواهم سنة ∴ وجماعة حُمُرٌ لعمرى موكفة

قد شبهوه بخلقه وتخوفوا ∴ شنع الورى فتستروا بالبلكفة[٣٧]

وقد رَدَّ عليه ابن المنير بقوله:

وجماعة كفروا برؤية ربهم ∴ حقًّا ووعد الله ما لن يخلفه

وتقلبوا عدلية قلنا أجـــل ∴ عدلوا بربهم فحسبهمو سفه

وتلقبوا الناجية كلا إنهم إن ∴ لم يكونوا في لظى فعلى شفه[٣٨]

وقال في تفسير قوله تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)[٣٩]

" تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول... كيف دل فيها التقديم على الاختصاص، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت العدد في محشر يجمع فيه الخلائق كلهم، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظورًا إليه محال فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص، والذى يصح أن يكون معه من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي؛ تريد معنى التوقع والرجاء، ومنه قول القائل:

وإذا نظرت إليه من ملك ∴ والبحر دونك زدتنى نعمًا

---

(٣٦) متفق عليه من حديث جرير بن عبد الله البجلى قال: "كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: " أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر " وللبخاري " إنكم سترون ربكم عيانًا "، العسقلانى (ابن حجر)؛ الكافى الشافِ في تخريج أحاديث الكشاف، حاشية الكشاف جـ٢:١٢٣.

(٣٧) البلكفة كلمة منحوتة من قولهم "بلا كيف" مثل حوقلة يعنى قول "لاحول ولا قوة إلا بالله" وبسمل يعنى قول "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ". الكشاف جـ٢: ١٢٣.

(٣٨) الانتصاف حاشية الكشاف جـ٢: ١٢٣.

(٣٩) القيامة: ٢٢، ٢٣.

والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه "(٤٠).

فهو ينفى الرؤية في الآخرة وقد رد عليه ابن المنير بقوله " ما أقصر لسانه عن هذه الآية، فكم يدندن ويطبل في جحد الرؤية ويشقق القباء ويكثر ويتعمق، فلما فغرت هذه الآية فاه، صنع في مصادمتها بالاستدلال على أن لو كان المراد الرؤية لما انحصرت بتقديم المفعول لأنها حينئذٍ غير منحصرة على تقدير رؤية الله تعالى، وما يعلم أن المِمَتَّع برؤية جمال الله تعالى لا يصرف عنه طرفه، ولا يؤثر عليه غيره؛ ولا يعدل به عز وعلا منظورًا سواه، وحقيق له أن يحصر رؤيته إلى من ليس كمثله شيء، ونحن نشاهد العاشق في الدنيا إذا أظفرته برؤية محبوبه لم يصرف عنه لحظة، ولم يؤثر عليه؛ فكيف بالمحب لله عز وجل إذا أحظاه النظر إلى وجهه الكريم نسأل الله العظيم ألا يصرف عنا وجهه وأن يعيذنا من مزالق البدعة ومزارات الشبهة وهو حسبنا ونعم الوكيل " (٤١).

وهكذا نرى الزمخشري مدافعًا عن آراء المعتزلة، مشيدًا برجالها حتى ليقرنهم بنبي الله موسى عليه السلام؛ بل يصفهم بأنهم أعلم الناس بالله تعالى ويستميت في الجدل من أجل نصرة رأي المعتزلة بعدم جواز رؤية الله في الآخرة، والباحث يميل إلى رأى أهل السنة بجواز رؤية الله تعالي في الآخرة وهذا من عطائه لأهل الجنة.

(٤٠) الكشاف جـ ٤: ٥٢٩.

(٤١) الانتصاف حاشية الكشاف جـ٤: ٥٢٩.

المبحث الرابع

موقف الزمخشري من القصص القرآني

القصص في القرآن من أهم موضوعات القرآن المكي الذى نزل تسلية للرسول وعظة لهؤلاء بما نزل بمن سبقهم من الأمم من العذاب لما عتوا عن أمر ربهم، وعندما يتعرض الزمخشري لتفسير آيات القصص في القرآن الكريم فهو يدقق الأخبار ويمحصها ولا يمر عليها ناقلاً فقط بل يمررها علي عقله ليقبل منها ما يقبله عقله ويرفض ما يتعارض مع فكره ويظهر هذا جليًا عند تفسيره لقوله تعالى (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) [٤٢] فقال: " قوله (وَهَمَّ بِهَا) يدل عليه..... فإن قلت: كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصد إليها ؟ قلت المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقَرَمِه ميلاً يشبه الهم به والقصد إليه، ولما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والغرائم وهو يكسر ما به ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمي همًا لشدته لما كان صاحبه ممدوحًا عند الله، بالامتناع لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عِظَمِ الابتلاء وشدته، ولو كان همه كهمها عن عزيمة لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين "[٤٣].

فهو يُرَجِّح أن يكون يوسف لم يَهِمَ بها، ويقدر حذف جواب الشرط، ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها، فلم يقع منه هم، ثم كَرَّ على ما قاله المفسرون بأنه رأى جبريل أو رأى يعقوب أو فتحت له صحف فقرأ فيها أو أنها استحيت من الصنم بأن هذا لا يقبله العقل، ويعلل ذلك بقوله لأن امتناعه إن كان بهذا السبب لما كان هناك مزية لنبي الله يوسف على غيره فيقول عن كل ما أورده المفسرون في هذه القصة: " وهذا ونحوه مما يورده أهل الحشو والجبر الذى دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه، وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل، ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنعيت عليه، وذكرت توبته واستغفاره كما نعيت على آدم عليه السلام زلته، وعلى داود، وعلى نوح، وعلى أيوب، وعلى ذي النون، وذكرت توبتهم واستغفارهم، كيف وقد أثنى الله عليه وسماه مخلصا، فعلم بالقطع أنه ثبت في هذا المقام الدحض، وأنه جاهد نفسه

(٤٢) يوسف ٢٤.

(٤٣) الكشاف جـ ٢: ٣٥٥.

مجاهدة أولى القوة والعزم، ناظرا في دليل التحريم ووجه القبح حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل في كتب الأولين، ثم في القرآن الذى هو سائر كتبه ومصداق لها ولم يقتصر إلا على استيفاء قضية وضرب سورة كاملة عليها، ليجعل له لسان صدق في الآخرين، كما جعله لجده الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والتثبت في موقف العثار، فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدى إلى أن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقتدي بنبي من أنبياء الله في القعود بين شعب الزانية وفى حل تكته للوقوع عليها وفى أن ينهاه ربه بثلاث كَرَّات ويُصَاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن، وبالتوبيخ العظيم وبالوعيد الشديد، وبالتشبيه بالطائر الذى سقط ريشه حين سفد غير أنثاه، وهو جاثم في مربضه لا يتحلل ولا ينتهى ولا ينتبه حتى يتداركه الله بجبريل وبإجباره ولو أن أوقح الزناة وأشطرهم وأحدهم حدقة وأصلحهم وجها لُقِيَ بأدنى ما لُقِيَ به نبي الله مما ذكروا لما بَقَى فيه عرق ينبض، ولا عضو يتحرك فيا له من مذهب ما أفحشه ومن ضلال ما أبينه " (٤٤).

فهو لم يقبل هذه الروايات؛ لأنها غير معقولة وما الفضيلة لنبي الله ولم يكن الزاجر من داخله ولا امتنع عن فعل الفاحشة مخافة الله تعالى، وبهذا نراه لا يقبل من الأخبار إلا ما يتفق مع العقل بعد تحقيق وتمحيص وتقليب للرأي وعرضه مرات على العقل، وهذا من رجاحة عقله في تعامله مع النص القرآني الحكيم ومع أقوال المفسرين السابقين عليه.

وكذلك ما أورده في تفسير سورة (ص) المكية عند تفسيره لقوله تعالى (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۞ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ)(٤٥).

حيث عرض لأقوال المفسرين وسرد ما قالوه بأن داود عليه السلام طلب إلى أوريا أن ينزل له عن امرأته حتى يتزوجها؛ أو أنه أرسله في الجيش وجعله على التابوت حتى قتل ثم تزوج امرأته أو أنه اطَّلَع من كوة في محرابه فرأى المرأة وفتنه جمالها وهى ناشرة شعرها فبعثه إلى الحرب ليقتل ويتزوجها. فرفض الزمخشري كل هذه الأقوال لأنها لا تتفق مع عصمة الأنبياء وعظيم منزلتهم وعلق على هذه الاقوال قائلا " فهذا ونحوه مما يقبح أن تحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أفناء

(٤٤) الكشاف ج٢ ص ٢٥٦.

(٤٥) ص:٢١،٢٢

المسلمين فضلا عن بعض أعلام الأنبياء وعن سعيد بن المسيب والحارث الأعور أن على بن أبى طالب ﷺ قال: " من حدث بحديث داود على ما يرويه القُصَّاص جلدته مائة وستين جلدة وهى حد الفرية على الأنبياء: ورُوِي أن رجلا حَدَّثَ بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحَدِّث به، وقال: إن كانت القضية على ما في كتاب الله فلا ينبغي أن يلتمس خلافها، وأعظم بأن يقال غير ذلك: وإن كانت على ما ذكرت وكفَّ الله عنها سترا على نبيه فما ينبغي إظهارها عليه، فقال عمر: لسماعي هذا الكلام أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس "(٤٦).

وقد بين الزمخشري بعد ذلك أن الله تعالى ذكر القصة على سبيل التعريض، وهو أبلغ في الزجر والمنع حيث قال: " فإن قلت: لم جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح قلت: لكونها أبلغ في التوبيخ من قبل التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعَرَّض به كان أوقع في نفسه، واشد تمكنا من قلبه، وأعظم أثرا فيه وأجلب لاحتشامه وحيائه، وأدعى إلى التنبيه على الخطأ فيه، من أن يبادره صريحا، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة "(٤٧).

فقد رفض أقوال المفسرين وعلل ذلك ببيان ما في التعريض من جمال وأثر في نفس داود عليه السلام.

إلا أنه أحيانا يترك هذه الطريقة ويقبل بعض الأقوال ويوردها من دون تمحيص أو تدقيق أو عرضها على العقل ومن ذلك ما رواه في قصة ذي القرنين في سورة الكهف المكية أيضا عندما تعرض لتفسير قوله تعالى (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا)(٤٨).

قال: " وعن بعضهم خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء فقيل بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الأخرى، ومعي صاحب يعرف لسانهم فقالوا له، جئنا ننظر كيف تطلع الشمس قال: فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغشي عليَّ، ثم أفقت وهم يمسحونني بالدُّهْن، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي فوق الماء كهيئة الزيت، فأدخلونا سربا لهم، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك،

(٤٦) الكشاف جـ ٤: ٦٢

(٤٧) الكشاف جـ ٤: ٦٣

(٤٨) الكهف: ٩٠

ويطرحونه في الشمس فينضج لهم، وعن مجاهد أن من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض "[٤٩].

فهو في تفسيره لهذه الآية أورد الرواية ولم ينسبها فقال عن بعضهم، وهذا على غير عادته في تدقيق الرواية وإسنادها إلى قائلها، ثم أورد كلاما لا يقبله العقل، فكيف تكون هذه الأذن التي يفترشها صاحبها وكيف تكون الأخرى التي يلبسها وهل يتصور العقل هذا في الآدمي، ولماذا لا تحرقهم هذه الشمس التي تنضج لهم الطعام إذا ألقوه فيها، فهنا لم يفكر ولم يعمل عقله في نقل هذا الكلام على غير عادته، وكذلك أورد الكلام في قصة فرعون وتشييده البناء الذى يريد أن يطلع منه إلى إله موسى عند تفسير قوله تعالى (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) [٥٠].

فأورد كلاما لا يقبله العقل على غير عادته في إعلاء قيمة العقل وتقديره [٥١].

وروى بعض الأساطير وساقها بعد قوله يُروى أو زعمت الرواة وكان الواجب عليه أن يُنَقِّحَها قبل كتابتها لاسيما أن بعضها كان استطرادًا لا علاقة له بتفسير الآية كما روى في قصة العباس بن عبد المطلب أنه إذا صاح أسقط الحوامل، وأبو عروة الذى كان يزجر السبع فتنفتق مرارته [٥٢]، وهذا ما قاله عن تفسير قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)[٥٣] حتى إن ابن حجر علق على ما أورد من الأحاديث في هذه القصة بقوله لم أجده، وهذا دليل على أن الزمخشري لم يدقق في نقل الأخبار ولم يتحقق من صحة ما ورد من الأحاديث ولكنه أوردها ونقلها كما سمعها وخالف عادته في التفكير وإعمال العقل.

وهذه القصص والأساطير التي أوردها تخالف كثيرًا ما نفاه من الحقائق بسبب احتكامه إلى العقل مثل نفيه رؤية الجن، ورفضه للحسد وتأثير الحاسد في المحسود وعدم تصديقه بالسحر

(٤٩) الكشاف: جـ٢:٥٨٢

(٥٠) القصص: ٣٨

(٥١) هذا الكلام في تفسير سورة القصص الكشاف جـ٣:٢٢٥

(٥٢) الكشاف جـ ٤: ٢٨٠.

(٥٣) الحجرات: ٢

وتأثيره في المسحور على وفق ما يريد الساحر؛ فعند تفسير قوله تعالى " يَا بَنِي آَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآَتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ " (٥٤) قال: " وفيه دليل على أن الجن لا يُرَونَ، ولا يظهرون للإنس، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم، وأن زعم من يدعي رؤيتهم زور ومخرقة "(٥٥).

فقد أطلق العنان لعقله حتى أنكر ما أثبتته السنة وقد رد عليه ابن المنير بقوله: " أين يذهب به عما ورد في الحديث الصحيح من اعتراض إبليس رأسهم ومقدمهم للنبيﷺ يروم أن يشغله عن صلاته؛ حتى أمكنه الله تعالى منه، فأخذه عليه الصلاة والسلام فَدَغَنَهُ وأراد أن يربطه في سارية من سواري المسجد يلعب به الصبيان. حتى ذكر دعوة سليمان فتركه، وإذا جاز ذلك للنبي ﷺ كان جائزًا لأولياء الله تعالى والمتبعين لسنة رسول الله ﷺ كرامة، لكن الزمخشري يصده عن ذلك جحده لكرامات الأولياء لأنه عقيدة إخوانه، إذ الكرامة إنما يؤتاها الولي الصادق فكيف ينالها من يُشَكُّ في إسلامه. فإنهم لفى عذر من جحدها والتكذيب بها رزقنا الله الإيمان بالكرامات إن لم نكن أهلاً لها"(٥٦).

وهذا موقفه من الأحاديث الشريفة حيث إنه يسلك في تعامله مع الحديث " إذا اصطدم بالمبدأ الاعتزالي شك فيه ثم أوله مفترضًا صحته مستنصرًا بالقرآن فهو مثلاً يخضع هذا الحديث لرأى المعتزلة في أن الإرادة الإنسانية حرة طليقة لا دخل للشيطان فيها غير التزيين يقول " وما روي من الحديث ما من مولود إلا والشيطان يمسه فيستهل صارخًا من مس الشيطان إلا مريم وابنها. فالله أعلم بصحته فإن صح معناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها فإنهما كانا معصومين منه وكذلك من كان في صفتهما كقوله تعالى (وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ❁ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) واستهلاله صارخًا من مسه تخييل وتصوير لطمعه فيه كأنه لمسه ويضرب بيده عليه ويقول هذا ممن أغويه ونحوه من التخييل.... وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو

(٥٤) الأعراف: ٢٧.

(٥٥) الكشاف جـ ٢: ٧٧.

(٥٦) الانتصاف حاشية الكشاف جـ٢: ٧٧.

فكلا، ولو سُلِّط إبليس على الناس ينخسهم لامتلأت الدنيا صراخًا وعياطًا مما يبلونا به من نخسه"[٥٧].

فهو يرفض نخس الشيطان للمولود ويؤول الحديث إن صح بأنه من التخييل ومعناه الطمع في غوايته انتصارًا لمذهبه ونصرة لفكرته.

وكذلك أنكر السحر فقال عند تفسيره لقوله تعالى (وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ)[٥٨]" النفاثات السواحر اللاتي يعقدن عقدًا في خيوط وينفثن عليها ويرقين، والنفث النفخ من ريق ولا تأثير لذلك اللهم إذا كان من إطعام شيء ضار أو سقية أو إشمامه أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه، ولكن الله عز وجل قد يفعل ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذى يتميز به الثبت على الحق من الحشوية والجهلة من العوام فينسبه الحشوية والرعاع إليهن وإلى نفثهن، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعبأون به.

فإذا قلت ما معنى الاستعاذة من شرهن ؟ قلت فيها ثلاثة أوجه أحدهما: أن يستعاذ من عملهن الذى هو صنعة السحر ومن إثمهن في ذلك، والثاني: أن يستعاذ من فتنهن الناس بسحرهن، وما يخدعنهم به من باطلهن، والثالث: أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن، ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات من قوله (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) تشبيهًا لكيدهن بالسحر والنفث في العقد أو اللاتى يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرض محاسنهن كأنهن يسحرنهم بذلك"[٥٩].

فهو يجتهد كل الاجتهاد في نفي حقيقة السحر " مع أن الكتاب والسنة قد وردا بوقوعه والأمر بالتعوذ منه وقد سُحِرَ النبي ﷺ في مشط ومشاطة في جف طلعة ذكر، والحديث مشهور وإنما الزمخشرى استفزه الهوى حتى أنكر ما عرف، ومابه إلا أنه يتبع اعتزاله، ويغطي بكفه وجه الغزالة "[٦٠].

(٥٧) منهج الزمخشري في تفسير القرآن صـ ١٥٠.

(٥٨) الفلق: ٤.

(٥٩) الكشاف جـ ٤: ٦٥٦.

(٦٠) الانتصاف حاشية الكشاف جـ٤: ٦٥٦.

وقوله لا تأثير لذلك أي السحر " فهو مبنى على مذهب المعتزلة من أنه لا حقيقة للسحر ولا تأثير له وذهب أهل السنة إلى إثباته وإثبات تأثيره لظاهر الكتاب والسنة"(٦١).

وهذا جانب آخر من تفسيره لبعض الآيات التي تدل على إعمال عقله واتباعه لمذهب المعتزلة حتى لو أداه ذلك إلى مخالفة الأحاديث الصحيحة الواردة عن النبي ﷺ ومخالفته جمهور العلماء بل إنه يسميهم جهالاً وحَشَوِيَّة ورعاعًا وطغامًا وأوغادًا لأنهم يخالفون عقله بما يتبعونه من النقل والاعتماد على ما قاله العلماء.

ولعل أهم ما يميز استجابة الزمخشري للنص القرآنى فكره الاعتزالي ونبوغه في علمي المعاني والبيان فالفكر الاعتزالي الذى يقدس العقل ويؤمن به يكد ذهنه من أجل الوصول إلى معانٍ للآيات ثم ينظر إلى القرآن نظرة كلية حيث يربط بين نسق الآية في موضعها والمعنى في عموم القرآن ويستنبط بعض الأحكام على طريقة الفقهاء بعد أن ينظر إلى النص من جميع الوجوه المحتملة.

فقد استخدم الثقافة الفلسفية والرياضية والعقلية من أجل استنباط المعاني من الآية لخدمة هذه المبادئ، فتراه يحمل الألفاظ من المعاني ما يتوافق مع مبادئه وأفكاره.

وأما نبوغه في علم البيان والمعاني فجعله يعد كل الآيات التي تخدم أفكاره من باب المجاز والتوسع في الاستعمال ويستخدم معرفته النحوية في إعراب الكلمات إعرابًا يحيل المعنى إلى ما يريد هو.

وعلى عكس ذلك في الآيات التي لا تخدم أفكاره الاعتزالية يسير فيها وفق ما قرره المفسرون ويعتمد على النقل أكثر من اعتماده على العقل ولا يقف من هذا النقل موقف الناقد بل أحيانًا يورده كما هو دون تدقيق أو تمحيص كما هو الحال عند نقله للتفسير في قصص القرآن مالم يمس فكرة أو عقيدة من عقائد المعتزلة.

(٦١) الانتصاف جـ ٤: ٦٥٦.

المبحث الخامس

نماذج من القضايا الاعتزالية في التفسير

وقضية أخرى من أبرز القضايا التي برزت على الساحة الفكرية الإسلامية وتصدى لها علماء المعتزلة ودافعوا عنها دفاعًا مستميتًا وهى قضية خلق القرآن، والذى جرهم إلى هذا المعتقد هو نفيهم الصفات الأزلية عن الباري سبحانه ومنها الكلام " وهذه الصفات القديمة معان قائمة به، لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذى هو أخص الوصف، لشاركته في الإلهية، واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق في محل، وهو حرف وصوت كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه، فإن ما وجد في المحل عَرَضٌ قد فني في الحال " (٦٢)

وقد اقتنع الخليفة المأمون برأى المعتزلة وحمل الناس على أن يدينوا به وبالغ في ذلك حتى كان يمتحن القضاة، فمن قال إن القرآن مخلوق أقره ومن قال إنه كلام الله القديم عزله عن منصب القضاء، بل أكثر من ذلك كان يمتحن من يدلى بشهادة أمام القاضي فإن أقر أن القرآن مخلوق قبلت شهادته ومن رفض منهم وقال إن القرآن من كلام الله القديم غير مخلوق ردت شهادته.

وما زال الخلاف بين السنة والمعتزلة محتدمًا حتى ظهر الأشعري المتوفى ٣٣٠هـ فذهب إلى أن كلام الله يطلق إطلاقين كما هو الشأن في الإنسان، فيسمى الإنسان متكلمًا باعتبارين: أحدهما بالصوت والآخر بكلام النفس الذى ليس بصوت ولا حرف، وهو المعنى القائم بالنفس والمعبر عنه بالألفاظ، وانتقل من هذا إلى أن كلام الله يطلق بهذين الإطلاقين؛ المعنى النفسي وهو القائم بذاته، وهو الأزلي القديم الذى لا يتغير بتغير العبارات، وهذا هو الذى يطلق عليه كلام الله حقيقة أما القرآن بمعنى المقروء المكتوب فهو كما يقول المعتزلة حادث مخلوق.

ولنتعرف رأي الزمخشري في هذه القضية، وكيف دافع عن عقيدة المعتزلة، عند تفسيره لقول الله تعالى: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (٦٣).

قال الزمخشري- رحمه الله-: " لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه وتأليفه، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان لعجزوا عن الإتيان بمثله، والعجب من النوابت،

(٦٢) الملل والنحل: ٦٥.

(٦٣) الاسراء: ٨٨.

ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم أنه معجز، وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة، فيقال الله قادر على خلق الأجسام والعباد عاجزون عنه، وأما المحال الذى لامجال فيه للقدرة ولا مدخل فيه كثاني القديم، فلا يقال للفاعل قد عجز عنه، ولا هو معجز، ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالعجز، لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال إلا أن يكابروا فيقولوا هو قادر على المحال، فإن رأس مالهم المكابرة وقلب الحقائق (٦٤).

وهو بهذا يعلن رأيه صراحة أن القرآن مخلوق وقد رد عليه ابن المنير بقوله: " ومما يدلك على حيد المصنف من سنن المنصف أنه يدلس على الضعفة في مثل هذه المسألة التي طبقت طبق الأرض ظهورًا وشيوعًا، ومع ذلك يرضي لنفسه أن يتجاهل فيها عن معتقد القوم، وذلك أن عقيدة أهل السنة أن مدلول العبارات صفة قديمة قائمة بذات الباري تعالى، يطلق عليها قرآن كريم، ويطلق أيضًا على أدلتها، وهذه هي الكلمات الفصيحة والآي الكريمة قرآن كريم، وأن المعجز عندهم الدليل لا المدلول، لكنهم يتحرزون من إطلاق القول بأنه مخلوق لوجهين، أحدهما: أنه إطلاق موهم. والثاني: أن السلف الصالح كفوا عنه فاقتفوا آثارهم واقتبسوا أنوارهم. وكم من معتقد لا يطلق القول به خشية إيهام غيره مما يجوز اعتقاده، فلا ربط بين الاعتقاد والإطلاق، ولا كرامة لمعتقد ذلك والمتعنت بإلزامه. وقوله " من زعمهم أن القرآن قديم " يريد بهم أهل السنة حيث يقولون إن القرآن قديم، ولكن لا بمعنى اللفظ الذى يسمعه بعضنا من بعض، فإن هذا حادث بل بمعنى كلام الله الذى هو صفة له قائمة بذاته تعالى، فهذا هو القديم كعلمه تعالى وإرادته، وقوله " رأس مالهم المكابرة " فليس كما قال غفر الله له، بل رأس مالهم التمسك بالكتاب والسنة وتحري الحقائق(٦٥).

ومن المسائل المهمة في تاريخ المعتزلة والتي كانت سبب تسميتهم بهذا الاسم مسألة حكم مرتكب الكبيرة وهل هو مسلم أو كافر والتي خالف فيها زعيمهم واصل بن عطاء شيخه الحسن البصرى، فقد جاء رجل إلى الحسن فقال: " يا إمام الدين! لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العلم على مذهبهم ليس ركنًا من الإيمان ولا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا في

(٦٤) الكشاف: ج، ٢: ٥٣٩، ٥٤٥.

(٦٥) الانتصاف حاشية الكشاف جـ ٢: ٥٤٠.

ذلك اعتقادًا ؟ فتفكر الحسن في ذلك، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقًا، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن فقال الحسن: اعتزل عنا واصل، فسمي هو وأصحابه معتزلة "[٦٦].

فواصل بن عطاء يقول إنه في منزلة بين المنزلتين، وتذهب الخوارج إلى تكفيره وأهل السنة يقولون أنه مؤمن، الحسن البصرى يري أنه لا مؤمن ولا كافر بل هو منافق أما واصل بن عطاء فكان " يرفض هذه الصفات الثلاث فمرتكب الكبيرة عنده لا يكون مؤمنًا ولا كافرًا ولا منافقًا بل يكون فاسقًا " [٦٧].

وبنى المعتزلة رأيهم على أن المعاصي قسمان: كبائر وصغائر، واختلفوا في تعريف كل منهما، وإن كان أكثرهم على أن الكبيرة ما أتى فيها وعيد، والصغيرة مالم يأتِ فيها وعيد، وقالوا إن بعض الكبائر تصل إلى حد الكفر فمن شبه الله بخلقه أو نسب إليه الظلم أو كذبه في خبر فقد كفر، وهناك كبائر أقل منها منزلة يسمى مرتكبها فاسقًا، الفسق منزلة بين الكفر والإيمان، ولهذا فإن الفاسق ليس مؤمنًا وليس كافرًا وإنما هو في منزلة بين المنزلتين.

ولأن الزمخشري معتزلي يدافع عن هذه الآراء ويتبنى القول بالمنزلة بين المنزلتين كانت استجابته في تأويل بعض الآيات نابعة من قناعته العقلية بهذه الآراء فقال عند تفسيره لقوله تعالى: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) [٦٨].

قال– رحمه الله–: " فإن قلت ما الإيمان الصحيح ؟ قلت: أن يعتقد الحق وأن يعرب عنه بلسانه، ويصدقه بعمله. فمن أخل بالاعتقاد– وإن شهد وعمل– فهو منافق، ومن أخل بالشهادة فهو كافر ومن أخل بالعمل فهو فاسق "[٦٩] فهو يقر هنا المنزلة بين المنزلتين والناس عنده مؤمن وكافر وفاسق، وقد رد عليه ابن المنير بقوله: ".. يعنى بالفاسق غير مؤمن ولا كافر، وهذا من الأسماء التي سماها القدرية، وما أنزل الله بها من سلطان، ومعتقد أهل السنة أن الموحد لله الذى لا خلل في

(٦٦) الملل والنحل جـ ١: ٦٨.

(٦٧) موسوعة المفاهيم الإسلامية صـ ٥١٦.

(٦٨) البقرة: ٣.

(٦٩) الكشاف حـ ١: ٣٠، ٣١.

عقيدته مؤمن وإن ارتكب الكبائر. وهذا هو الصحيح لغة وشرعًا، أما لغة فالإيمان هو التصديق وهو مصدق، وأما شرعًا فأقرب شاهد عليه هذه الآية، فإنه لما عطف فيها العمل الصالح على الإيمان، دل على أن الإيمان معقول بدونه، ولو كان العمل الصالح من الإيمان لكان العطف تكرارًا، وانظر إلى حيلة الزمخشري على تقريب معتقده من اللغة يقول: المؤمن من اعتقد الحق وأعرب عنه بلسانه وصدقه بعمله، فجعل التصديق من حظ العمل، حتى يتم له أن من لم يعمل فقد فَوَّت التصديق الذى هو الإيمان لغة. ولقد أوضحنا أن التصديق إنما هو بالقلب ولا يتوقف وجوده على عمل الجوارح؛ مما يحقق معتقد أهل السنة أن من آمن بالله ورسوله ثم اخْتُرِم قبل أن يتعين عليه عمل من أعمال الجوارح فهو مؤمن باتفاق وإن لم يعمل "[٧٠].

ويحاول الزمخشري أن يعمق هذا المفهوم وهو المنزلة بين المنزلتين عندما يتعرض للآيات التي تتحدث عن المؤمنين والكفار الذين ارتكبوا كبيرة الكفر فيقول في تفسيره لقوله تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۞ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)[٧١]، قال: " التي هي أقوم للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدها.. وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق بلاغة الذى تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه.. فإن قلت: كيف ذكر المؤمنين الأبرار والكفار ولم يذكر الفسقة ؟ قلت: كان الناس حينئذٍ إما مؤمن تقى، وإما مشرك، وإنما حدث أصحاب المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك "[٧٢]، فالناس في بداية الدعوة لم يكن فيهم إلا مؤمن وكافر وظهر بعد ذلك طائفة أخرى بعد الهجرة إلى المدينة هم المنافقون ومن يأخذ كحمهم، حيث " لم يكن إذن حين نزول القرآن من الكبائر إلا كبيرة الكفر يقترفها المشركون ثم حدثت بعد ذلك كبيرة الفسق أو المنزلة بين المنزلتين، والفاسق في الشريعة الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة، وهو النازل بين المنزلتين أي منزلة المؤمن والكافر... وصاحب المنزلة بين المنزلتين (الفاسق) حكمه حكم المؤمن في أنه يناكح

(٧٠) الانتصاف حاشية الكشاف جـ ١: ٣٠، ٣١.

(٧١) الاسراء: ٩، ١٠.

(٧٢) الكشاف جـ ٢: ٥٠٨.

ويوارث ويغسل ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين، وهو كالكافر في الذم واللعن والبراءة منه واعتقاد عداوته وألا تقبل شهادته"(٧٣).

وقد سار الزمخشري على هذا المنهج عند تأويله لجميع الآيات المتصلة بالصغائر والكبائر في القرآن الكريم لأن هذا المبدأ من أهم مبادئ المعتزلة والدفاع عنه لازم لإثبات صحة إعتقادهم في مواجهة أهل السنة فيقول عند تفسيره لقول الله تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)(٧٤).

قال- رحمه الله-: " المتقي في اللغة اسم فاعل من قولهم: وفاه فاتقى والوقاية فرط الصيانة ومنه فرس واق... وفى الشريعة الذى يقي نفسه تعاطى ما يستحق من العقوبة من فعل أو ترك واختلف في الصغائر، وقيل الصحيح أنه لا يتناولها، لأنها تقع مكفرة عن مجتنب الكبائر، وقيل: يطلق على الرجل اسم المؤمن لظاهر الحال، والمتقي لا يطلق إلا عن خبرة كما لا يجوز إطلاق العدل إلا على المختبر "(٧٥).

وقد رد ابن المنير على الزمخشري بقوله: " ومن تمنى القدرية على الله تعالى اعتقادهم أن الصغائر ممحوة عنهم ما اجتنبوا الكبائر، وهذا هو الخطأ الصراح، والمحادة لآيات الله البينات وسنن رسول الله ﷺ الصحاح، والحق أن غفران الصغائر- وإن اجتنبت الكبائر- موكول إلى المشيئة كما أن غفران الكبائر موكول إليها أيضًا، ومن لا يعتقد ذلك وهم القدرية يضطرون إلى الوقوف عند قوله تعالى (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) فإنه ناطق بالمؤاخذة بالصغائر. ويتحيرون عند قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا) فإنه مصرح بمغفرة الكبائر.

أما أهل السنة فقد ألَّفوا بين هاتين الآيتين بقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) فإن التقيد بالمشيئة في هذه يقضى على الآيتين المطلقتين "(٧٦).

وقد ألح على هذا المعنى في تقسيمه الذنوب صغائر وكبائر في كل الآيات التي تتحدث عنها فقال في تفسير قوله تعالى: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ

(٧٣) منهج الزمخشري في تفسير القرآن صـ ١٣٠.

(٧٤) البقرة: ٢.

(٧٥) الكشاف جـ ١: ٢٨، ٢٩.

(٧٦) الانتصاف حاشية الكشاف جـ ١: ٢٨، ٢٩.

الْعِقَابِ) [٧٧] قال: " أي مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب. ومحله الحال، بمعنى ظالمين لأنفسهم وفيه أوجه أن يريد السيئات المكفرة لمجتنب الكبائر. أو الكبائر بشرط التوبة. أو يريد بالمغفرة الستر والإمهال، وروى أنها لما نزلت قال النبي ﷺ " لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحد العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد "[٧٨].

وقد رد عليه ابن المنير مفندًا رأيه بقوله: " والوجه الحق بقاء الوعد على إطلاقه إلا حيث دل الدليل على التقييد في غير الموجد، فإن ظلمه أعني شركه لا يغفر وما عدا الشرك فغفرانه في المشيئة، والزمخشري يبنى على عقيدته التي وضح فسادها، في استحالة الغفران لصاحب الكبائر وإن كان موحدًا إلا بالتوبة، فيقيد مطلقًا ويحجر واسعًا " [٧٩].

وقال في تفسير قوله تعالى (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ)[٨٠].

كبائر الاثم أي الكبائر من الإثم، لأن الإثم جنس يشمل على صغائر وكبائر، والكبائر الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة، وقيل التي يكبر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها والفواحش ما فحش من الكبائر، كأنه قال والفواحش منها خاصة: وقرئ كبير الإثم أي النوع الكبير منه، وقيل: هو الشرك بالله، واللمم ما قل وصغر والمراد الصغائر من الذنوب وعن أبى سعيد الخدري اللمم النظرة والغمزة والقبلة، وعن السُّدِّي الخطرة من الذنب وعن الكلبي كل ذنب لم يذكر الله عليه حداً ولا عذاباً، وعن عطاء عادة النفس الحين بعد الحين، (إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ) يكفر الصغائر باجتناب الكبائر ويكفر الكبائر بالتوبة. [٨١].

كانت هذه أهم القضايا الفكرية التي أثارها المعتزلة في اختلافهم مع أهل السنة وهى رؤية الله وخلق القرآن والمنزلة بين المنزلتين وقد رأينا كيف عالجها الزمخشري ضمن معالجته للقضايا الاعتزالية من خلال الكشاف ضمن الأصول الخمسة التي بنى المعتزلة حركتهم الفكرية عليها وهى التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ورأينا من

(٧٧) الرعد: ٦.

(٧٨) الكشاف جـ ٢: ٤٠٠.

(٧٩) الانتصاف حاشية الكشاف

(٨٠) النجم: ٣٣.

(٨١) الكشاف جـ ٤:٢٣٨، ٢٣٩

خلال تفسير الزمخشري (الكشاف) اعتماد المؤلف على العقل في تفسير النصوص الشرعية وتماديه في ذلك ومبالغته في التعويل عليه مما أوقعه في خلاف مع علماء أهل السنة لا سيما عندما تعرض لبعض المسائل التي تتعلق بصفات الله وبقسمه لها إلى صفات ذات وصفات أفعال مما ترتب عليه قولهم بأن القرآن مخلوق وما جرته من ويلات على المجتمع الإسلامي عندما أراد الخليفة حمل الناس على هذا الاعتقاد، وخالفهم في رؤية الله تعالى في الآخرة ودفاعه عنها دفاعاً مستميتاً ولي أعناق الآيات للوصول إلى الإقناع بهذه الفكرة. واستجابة الزمخشري للنص القرآني كانت في كل أحيانها نابعة من هذه العقيدة متأثرة بمن قبله من علماء المعتزلة وخاصة القاضي عبد الجبار الهمداني المتوفى ٤١٥هـ في كتابه المغني في أبواب التوحيد والعدل، ونقل هذه الأفكار في ثنايا التفسير عند تفسيره للآيات التي تتعلق بهذه الموضوعات في القرآن الكريم من أوله إلى آخره.

الخاتمة وأهم نتائج البحث

١- الكشاف من أهم كتب التفسير لاختلاف طريقته وتأسيسه على علمي المعاني والبديع فضلًا عن أنه التفسير الوحيد الباقي من تفاسير المعتزلة الذى يحمل طابع تفكيرهم ويكشف عن طبيعة تعاملهم مع النص القرآني.

٢- لم يصرف الفكر الاعتزالي في الكشاف أهل السنة عن دراسته والإفادة منه مع تصحيح ما فيه من مفاهيم تخالف عقيدة أهل السنة والجماعة كما فعل ابن المنير وغيره.

٣- استقى الزمخشري مادته العلمية من مصادر متنوعة تجمع بين ألوان مختلفة من الثقافات عند المفسرين فأخذ من أصحاب اللغة والنحو والفقه والمتصوفة والزهاد والعباد وعلماء القراءات والأدباء والمؤرخين فهضمها جميعًا ثم صاغ تفسيره ليجمع بين كل هذه الأطياف العلمية.

٤- وضوح النزعة العقلية وغلبتها على النقل مع عدم إغفال التفسير المأثور ولكن يورده بعد عرضه على عقله فيرفض منه ويقبل بحكم العقل ولا يرضى عن ذلك بديلا.

٥- يخرج الزمخشري عن طريقته أحيانًا ويورد أمورًا لا يقبلها العقل لاسيما عند حديثه عن القصص القرآني.

٦- يرد الزمخشري بعض الأحاديث إذا تعارضت مع المبادئ الاعتزالية ويشكك في صحتها ويحاول أن ينتصر رأيه بالقرآن وبأضعف الأحاديث الموضوعة لنصرة مذهبه.

٧- تضمن التفسير مبادئ المعتزلة الخمسة وشرحها من خلال آيات القرآن مع الإفادة من ثقافته اللغوية فأخضع الألفاظ للمعاني التي أرادها وإن لم يستعملها العرب بهذه الدلالات عند نزول القرآن.

وفى الختام أدعوا الله العلى القدير أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجنبنا الزلل في القول والعمل، وما كان فيه من الصواب فمن الله وحده ولا حول ولا قوة إلا بالله، وما كان فيه من الخطأ فمن نفسي ومن الشيطان وألتمس من القارئ الكريم أن يغض الطرف عن الخطأ وأن يصلح ما فيه من خطأ أو خلل، فكل عمل بشرى لا يخلو من النقص والكمال لله وحده، وحسبي أنى بذلت جهدي، وحاولت طاقتي، والله يغفر لي تقصيري والحمد لله رب العالمين وسلام على رسله المكرمين وعباده الصالحين. وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم

فهرس المصادر والمراجع

١) الزمخشري (محمود بن عمر)؛ ربيع الأبرار وفصوص الأخبار تحقيق د. عبد المجيد دياب مراجعة د. رمضان عبد التواب طبع الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٢م.

٢) الجويني (د. مصطفى الصاوي)؛ منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه طبع دار المعارف القاهرة الطبعة الثالثة ١٩٨٤ م.

٣) ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف٨١٣- ٨٧٤هـ)؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠٠٨ م.

٤) العلوى (يحي بن حمزة)؛ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠٠٩ م.

٥) الشكعة (د. مصطفى)؛ إسلام بلا مذاهب طبع الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة الطبعة السابعة ١٤٢٧هـ، ٢٠١٦ م.

٦) الحوفي (د. أحمد)؛ الزمخشري، طبع دار الفكر العربي طبعة أولى ١٩٦٦ هـ.

٧) شلبي (د. أحمد)؛ موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية طبع مكتبة النهضة المصرية الطبعة التاسعة ١٩٩٦ م.

٨) السامرائي (د. فاضل صالح)؛ الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري طبع دار ابن كثير بيروت لبنان ١٤٣٧هـ ١٠١٦م.

٩) ضيف(د. شوقي)؛ البلاغة العربية تطور وتاريخ، طبع دار المعارف القاهرة، الطبعة الرابعة عشر د. ت.

١٠)الشهرستاني (أبو الفتح مُحَمَّد بن عبدالكريم ت. ٥٤٨ هـ)؛ الملل والنحل، طبع المكتبة التوفيقية بالقاهرة ٢٠٠٣ م تحقيق مُحَمَّد فريد.

١١)الإسكندري (أحمد بن المنير)؛ الانتصاف من الكشاف حاشية الكشاف.